سفر أشعيا، سيرة ملكيّة
اقتراح بنية للإصحاحات ٧-٣٩

د. نقولا أبو مراد
معهد القدّيس يوحنّا الدمشقيّ – جامعة البلمند، لبنان

مقدّمة

سوف نحاول في هذه المحاضرة أن نتتبّع الخطّ التأليفيّ البارز في سفر أشعيا، ألا وهو إثبات فشل الملكيّة في يهوذا وأورشليم، وتملّك "يهوه" نفسه مباشرةً، أو من خلاله مسيحه. ومن خلال هذا التتبّع سنعرض لأهمّيّة هذا الموضوع في بنية السفر وفي طبيعته، هذا على المستوى المحدّد، وفي علاقته مع أسفار أخرى على المستوى الكتابيّ العام.

تقديم أشعيا للملكيّة

لا يَخْفَى على أحد من الدارسين أنّ المَعلَم الأوّل على هذا الخطّ التأليفيّ نجده في الفصل السادس. في بداية الفصل نقرأ: "في سنة موت عزّيّا الملك، رأيت السيّد جالسًا على كرسي عالٍ ومرتفع، وأذياله تملأ الهيكل" (٦: ١). في هذه الآية التي تستهلّ "الرؤيا"، رؤيا الربّ في الهيكل، التي صارت عنوانًا لسفر أشعيا ككلّ، نرى الربّ وكأنّ الكلام فيه أنّه هو الذي خلف عزّيّا على العرش بعد موته، بدل يوثام ابنه، الذي لا يذكره سفر أشعيا إلاّ في تعداد الملوك الذين تكلّم أشعيا في أيّامهم (أش ١: ١)، ثمّ في الكلام عن آحاز بكونه ابن يوثام (أش ٧: ١). يرد الكلام عن مَلِكَي يهوذا هذين في سفر الملوك الثاني، في الفصل ١٥. يقول سفر الملوك فيهما أنّهما عملاَ ما هو مستقيم في عيني الربّ (٢ مل ١٥: ٣ و٣٤). غير أنّ الأمر السلبيّ في سيرتهما أنّ "المرتفعات لم تنتزع، بل كان الشعب لا يزالون يذبحون على المرتفعات" (٢ مل ١٥: ٤ و٣٥)، فكان عقاب الأوّل أن ضربه الربّ بالبرص، فلم يعد قادرًا على أن يقوم بالمهام الملكيّة (٢ مل ١٥: ٥)، أمّا الثاني فعاقب الربّ يهوذا في أيّامه، حين "ابتدأ يرسل عليها ملكَي

آرام وإسرائيل لمحاربتها" (٢ مل ١٥: ٣٧).

على هذا المستوى، يجري سفر أشعيا قطعًا جذريًّا في السلسلة الملكيّة ، عند عقدة عزّيا ويوثام، وهو أنّه يتحدّث عن استلام "السيّد" نفسه زمام الأمور، وبدئه عملَه الديّان على الشعب "النجس الشفتين" (٦: ٥). يستعيد الربّ هنا الملكيّة التي كانت اغتصبت منه في ١ صم ٨، ويعلن بأنّه سيدين، لا فقط "شعبه"، ولكن الأرض كلّها.

بنية الفصول ٧ – ٣٩

تلي الفصل السادس، الذي يصوّر، كما سبق وذكرنا، تملّك "السيّد الربّ" انطلاقًا من الهيكل، وعزمه على أن يوجّه، بواسطة أشعيا، رسالة دينونة إلى أورشليم ومدنها، إصحاحات بنيتُها، كما سنحاول أن نبرز في ما يأتي، كياستيّة، توضح، بتفصيل السبب الذي من أجله أعلن أشعيا سقوط الملكيّة وقيام مسيح الربّ. وتنطلق هذه البنية من "الخطيئة الملكيّة المميتة" في أورشليم، لتصل إلى تعميم هذه الخطيئة على الأمم، ليذهب السفر إلى إعلان قيام مملكة المسيح الأبديّة، ليس فقط لأهل أورشليم، ولكن أيضًا، للأمم. أمّا هذه البنية الكياستيّة، فتأتي عناصرها على النحو الآتي:

بعد المشهد الذي يصوّر جلوس الربّ على الكرسي/العرش بعد موت عزّيا، ويلغي أيّ ذكر ليوثام، يشكّل الفصلان ٧ و٨ مع الفصول ٣٦ – ٣٩ طرفَي العنصر الأوّل من بنية كياستيّة للفصول ٧ إلى ٣٩ (AA‘). الأمر المشترك بين أش ٧–٨ من جهة، وأش ٣٦–٣٩، من جهة أخرى، هو أنّها مكتوبة بأسلوب تأريخيّ، يستعيد، بشكل واضح، أسلوب أسفار الملوك ولغتها؛ ففي الفصل السابع نقرأ ما يرد في ٢ مل ١٦ حول آحاز والحلف الآراميّ الإسرائيليّ ضدّه، وكيف أنّه لجأ إلى ملك الأشوريّين بحثًا عن دعم لمواجهة هذا الحلف، وتاليًا لكي ينجّي نفسه ومملكته. لا يذكر ٢ مل ١٦ تدخّل الربّ بواسطة أشعيا نبيّه ليثني الملك عن ذلك. هذا نقرأه في أش ٧، كما نقرأ فيه أيضًا دعوة الملكِ إلى الوثوق بالربّ القادر على إسقاط الحلف الآراميّ الإسرائيليّ على يهوذا وأورشليم، وإلى إفشال الهجوم.

هذا هو الطرف الأوّل من العنصر الكياستيّ الأوّل ، أمّا الطرف الثاني، أيّ أش ٣٦– ٣٩، فهو يستعيد على نحو شبه حرفيّ الروايات المتعلّقة بالملك حزقيّا

في ٢ مل ١٨–٢٠، من محاصرة الأشوريّين لأورشليم وعدم قدرتهم على إسقاطها، إلى مرض حزقيّا وشفائه وإطالة عمره، وفي النهاية إدخاله مبعوثي البابليّين إلى خزائن المملكة. هذا الحدث الأخير يشكّل، في سفري الملوك الثاني وأشعيا على السواء، علامة على السبيّ وانقطاع النسل الملكيّ (٢ مل ٢٠: ١٧–١٩، وأش ٣٩: ٦–٨). علامة السبي هذه وإعلانه وإعلان سقوط الملكيّة هو الذي يشكّل الطرف المعنويّ من التضمين مع الفصلين ٧ و٨ اللذين يتحدّثان عن عدم اتّكال الملك آحاز على الربّ؛ فكما تتحوّل هناك علامة عمّانوئيل من علامة خلاص إلى علامة دمار شامل بسبب عدم إيمان الملك، تتحوّل هنا فعلة حزقيّا إلى علامة سبي تامّ ونهاية للملكيّة بسبب الأمر عينه، ألا وهو لجوء الأوّل إلى الأشّوريّين ولجوء الثاني إلى البابليّين دون الربّ، وهي الخطيئة الملكيّة الكلاسّيكيّة في العهد القديم. أضف إلى هذا أنّ آحاز وحزقيّا كلّيهما لم يكترثَا لاستمراريّة المملكة بل لأيّامهما فقط، فما نظر آحاز إلى بركة الربّ الأبديّة على بيت داود في ٦: ١٧–٢٥ لو اتّكل على الربّ، أمّا حزقيّا فاعتبر أنّه يكفي إن كان ثمّة سلام وأمان في أيّامه (٣٩: ٨).

بعد طرفي العنصر الأوّل من البنية الكياستيّة التاريخيّين في أسلوبهما حول آحاز وحزقيّا اللذين يصوّران محاولة الربّ لإنقاذ الملكيّة أو لجعلها ملكّية على حسب مشيئته وتبيان فشلها، يأتي طرفا العنصر الثاني (BB‘) ليتحدّثا عن مملكة المسيح وثباتها إلى الأبد، وذلك في ٩: ١–٧ من جهة، والفصل ٣٥ من الجهة الأخرى. ويشكّل هذا العنصر تضادًا واضحًا مع العنصر الأوّل؛ فمقابل رعونة آحاز وحزقيًا وخوف هذا ومرض ذاك وآنية وإعلان قصر عمر مملكتهما، يأتي الكلام عن أزليّة السلام في مملكة المسيح الثابتة بالحقّ والبرّ إلى الأبد. آحاز، باتّكاله على غير الربّ، جلب "الشدّة، والظلمة، وقتام الضيق" (٨: ٢٢) على المملكة، وحزقيّا أعطى خمس عشرة سنة من السلام لمملكته، وما اكترث بما سيصيبها بعد موته من ويلات (٣٩: ٨). أمّا مسيح الربّ فباتكاله على الربّ، وببرّه وعدله وتثبيته المملكة على الحقّ والبرّ (٩: ٧) أقامها إلى "أبد الأبد" (٩: ٧) وأحالها من بريّة إلى جنة مرويّة وأسكن فيها المفديّين "بالترنّم والفرح والابتهاج" (٣٥: ١٠).

ثمّ يأتي العنصر الثالث (CC‘)، وهو مؤلّف من مجموعة من المقاطع تبدأ بـ"الويل"،

في ١٠: ١–٤ و٥–١١، وهي تعلن الويل على قضاة الباطل والكتبة وعلى أشّور من جهة، وفي الفصول ٢٨ و٢٩ و٣٠ و٣١ و٣٣ على السكارى وأورشليم والبنين المتمرّدين والمتّكلين على مصر، وأشّور، على التوالي. هذه الويلات في طرفي العنصر الثالث تعزّز حكم الربّ على المملكة في طرفي العنصر الأوّل. وهي تعلن على المعنيّين بسبب القضاء الباطل وعدم الاهتمام بالمهمّشين من أيتام وأرامل وبائسين. كما تعدّد خطايا الكهنة والأنبياء (٢٨: ٧) وابتعادهم عن واجبهم في حفظ شريعة الربّ وتعليمها. غياب الفهم والتعليم وعدم سماع كلمة الربّ جلب الويل على أورشليم (٢٨: ١١–١٢). السكر والخمر وعدم قدرتهم على قراءة كلمة الربّ (٢٩: ٩–١٢). ويذكر أشعيا أيضًا اتكالهم على أشّور ومصر، وهو الموضوع الذي رأيناه في ٧–٨ و٣٦–٣٩.

بعد عنصر الويلات الثالث يشكّل، مرّة أخرى، كلام مسيانيّ ووعد بخلاص البقيّة العنصر الرابع في البنية الكياستية (DD') في أش ١١ من جهة، وأش ٢٧ من جهة أخرى. يستعيد الفصلان ١١ و٢٧، موضوعان طرفي العنصر الثاني المسيانيّ في البنية الكياستيّة التي نحاول تبيانها هنا. مسيح الربّ في الفصل ١١، هو من جذع يسّى. يحلّ محلّ داود، ويؤسّس لسلالة أبدية أركانها "الحكمة والفهم وروح المشورة والقوّة وروح المعرفى ومخافة الربّ" بروح الربّ (١١: ١–٢). وتكون مملكة العدل للمساكين والإنصاف لبائسيّ الأرض، خلافة لمملكة الباطل والظلم والقر، كما رأينا في طرفي عنصر الويلات (١١: ٤–٥). سلاح المسيح سيكون كلام شفتيه وبرّه، وبهذا سيدين الخاطئين، فتتأصّل المملكة، وتثبت إلى الأبد وتزهر وتنغرس وتثمر (٢٧: ١–٧).

إعلان نبوءة المسيح في طرفي العنصر الثاني والرابع، ويقينيّة الخلاص الذي سيتمّه الربّ بواسطة مسيحه، يمهّدان لطرفي العنصر الخامس من البنية الكياستيّة المقترحة (EE')، وهو مكوّن من نشيدي حمد وشكر للربّ على خلاصه في الفصل ١٢ والفصلين ٢٥–٢٦. الربّ هو القوّة، والخلاص، وأفعاله تستحقّ أن يعرّف بها بين الشعوب. المقتخر الذي صنعه، وهو مملكة المسيح البارّة، موضوع تذكار لتعظيم الربّ (١٢: ١–٦). ويعظّم النبيّ الربّ على العجب الذي صنعه بمسيحه. لأنّه هدم القصور المبنيّة على الباطل وأقام مملكة مسيحه المجرية العدل والإنصاف. وبدل أن يدين الربّ اشلعب بسبب خطيئة ملوكه ورؤسائه سيمسح الحزن عن وجوه البائسين

في مملكة المسيح الأزليّة (٢٥: ١–٨).

وهنا، بعد هذه العناصر الخمسة للبنية الكياستيّة، نبلغ وسط البنية، وهو مؤلّف من نبوءات ضدّ سبع بلدان أو مدن، ستّ أمميّة وأورشليم سابعتها، وذلك في الفصول ١٣–٢٣، وهي على التوالي نبوءة ضدّ بابل، وموآب، ودمشق، ومصر، وبريّة البحر، ووادي الرؤيا (أورشليم)، وصور. توبّخ هذه الأمم وتعلن دينونتها، لأنّها أخطأت خطايا أورشليم نفسها، فهي أيضًا لم تجرِ العدل، وما أنصفت البائس والمسكين، وتمرّدت على كلمة الربّ، واستكبرت، وتحّصنت الواحدة أمام الأخرى، وتحاربت، واتّكلت على قوتها الذاتية وتباهت برفعتها. ولذا سيضعها الربّ ويسقطها.

إنّ توسط النبوءات ضدّ الأمم السبع في الفصل ١٣–٣٢، يضع الأمم وأورشليم وخطيئتهما في قلب الراسلة الأشعيانيّة، وعليه، يمكن القول، إنّ أشعيا أراد بهذا أن يظهر أنّ الله ليس ملكًا على يهوذا وأورشليم فقط، ولكنّه ملك على كلّ الأمم وبالأخصّ على بابل ومصر. وأنّ فشل الملكيّة في أورشليم بمثلي آحاز وحزقيّا إنّما هو رمز لفشلها في الأمم أيضًا. لذا فالمملكة الموعودة لمسيح الربّ لن تعني أورشليم وحدها بل وكلّ الأمم أيضًا، الأمر الذي يستدعي حمد الربّ على لسان كلّ الأمم لكونه هو ملكها وربّها. كما أتت الدينونة على كلّ الأمم بسبب خطاياهم، هكذا سيأتي الخلاص على كلّ الأمم بسبب برّ المسيح وعدله.

هذه الشموليّة في النظرة إلى ملكيّة الربّ نراها في بداية سفر أشعيا وفي نهايته في الفصل ٢ حيث الكلام عن جبل الربّ المرتفع الذي تأتي إليه كلّ الأمم لتعلّم وصاياه وتسلك في طرقه، وفي الفصل ٦٦ حيث يصير الأمم سامعين لشريعة الربّ وخادمين له في مراتب اللاويّين. بين هذين الطرفين دينونة لأورشليم ومن خلالها لكلّ الشعوب في أش ٢: ٥ – ٥: ٣٠، وخلاص، بعبد الربّ، مسيح الربّ، ليعقوب ومن خلاله لكلّ الأمم في أش ٤٠ – ٦٥. ليس المجال هنا لكي أستعرض تفاصيل هذين القسمين من سفر أشعيا، ولكنّ الاستعمال المستفيض لصورة إبراهيم وسارة وبعض موضوعات سفر التكوين، سيّما الخليقة الجديدة، إنّما هي أمور تنقلنا إلى أفكار سفر التكوين في تمرّد الشعوب كلّها على الربّ.

الخاتمة

في الخاتمة أودّ الإشارة إلى أنّ سفر أشعيا يشير في عنوانه ليس إلى أنّه نبوءة بل إلى أنّه رؤيا، وذلك في ١: ١ وفي ٢: ١. ولئن كانت تسميته كذلك للإشارة إلى رؤيا أشعيا في الفصل ٦، إلاّ أنّ اعتقاديّ أنّ هذه التسمية تتجاوز الربط مع الرؤيا في الفصل السادس إلى تقديم نظرة رؤيويّة إلى التاريخ كما في الأسفار الرؤيويّة الأخرى في الكتاب وخارجه، وذلك في الدرج الأشعيانيّ كاملاً. الربّ هو سيّد التاريخ، هو بدايته وهو نهايته، وهو يحرّك تعرّجاته، ومهما حاول الانسان الاستيلاء على التاريخ وإيهام نفسه بنصر هنا أو غلبة هناك، إلاّ أنّ الغلبة الأخيرة ستكون للربّ ومتّقيه. سفر أشعيا حركة تاريخيّة رؤيويّة يسقط فيها المتعاظمون من بابل وأشور إلى أورشليم المتعاظمة بأحلافها، ليسود الربّ ومسيحه المتألّم ومعهما أتقياؤه إلى أبد الآبدين.

مراجع

ALEXANDER Joseph Addison. *Commentary on the Prophecies of Isaiah*, Grand Rapids: Zondervan Publishing House, 1953.

CLEMENTS Ronald Ernest. *Isaiah and the Deliverance of Jerusalem: A Study of the Interpretation of Prophecy in the Old Testament*, Sheffield, England: J.S.O.T. Press, 1980.

MARTIN Alfred and Martin John. *Isaiah: The Glory of the Messiah*, Chicago: Moody Press, 1983.

OSWALT John. *The Book of Isaiah: Chapters 1-39*, NICOT, Grand Rapids: 1986.